﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾

[الأحزاب: 7 - 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

كـلُّ شـيءٍ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ

لما ذكرَ اللهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ بعضَ الأحكام المتعلِّقة بالنَّبيِّ ﷺ وأزواجِهِ أمَّهات المؤمنين، وموقِعَهم مِنَ الأمَّة، وذكرَ بعضَ الأحكام المتعلِّقة بأولي الأرحام؛ بيَّن أنَّ كلَّ ذلكَ مسطورٌ في اللَّوح المحفوظ، ومسطورٌ كذلكَ في القرآنِ الكريم، وعقَّب ذلك بأنَّ الميثاقَ الذي أخذهُ اللهُ مِنَ الأنبياءِ، وما يترتَّب عليه من سؤالٍ، وثوابٍ وعقابٍ، مسطورٌ كذلك في الكتابَيْن.

ومن المناسبةِ أيضًا أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ بعضَ العلائق بين الأنبياءِ وربِّهم ﷻ، بعدما بيَّن بعضَ العلائقِ بين النَّبيِّ ﷺ وأزواجِه رضي الله عنهن بآحاد هذه الأمَّة.

لا ينبغي للنَّبيِّ ﷺ أن يخاف غيرَ الله تعالى

وقيل: لمّا أمر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ بالاتِّقاء بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، وأكَّدَه بالحكايةِ الَّتي خشيَ فيها النّاس، لكي لا يخشى فيها أحدًا غيرَهُ، وبيَّن أنَّه لم يرتكِبْ أمرًا يوجِبُ الخشيةَ بقوله: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]؛ أكَّدهُ بوجهٍ آخَرَ، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، كأنَّه قال: اتَّقِ اللهَ، ولا تَخَفْ أحدًا، واذْكُرْ أنَّ اللهَ أخذَ ميثاقَ النَّبيّين في أنَّهم يُبلِّغونَ رسالاتِ الله، ولا يمنَعُهم مِن ذلك خوفٌ ولا طمعٌ، وأكَّدَ ذلك في حقِّ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ مخصِّصًا إيّاه مِنَ العموم، مُبتدئًا به بيانًا لتشريفه، فقال: ﴿وَمِنكَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾

الَّذين هم أولو العزم مِنَ الرُّسُل معه ﷺ، وهم أصحابُ الكتُبِ ومشاهيرُ أربابِ الشَّعائر؛ تأكيدًا للأمرِ وتعظيمًا للمقام[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾: (وثق) كلمةٌ تدُلُّ على عَقْدٍ وإحكام، يقالُ: وثِقَ به يَثِقُ بكسرِ الثّاءِ فيهما ثقةً؛ إذا ائْتمنَه، وهو ثقةٌ، والميثاقُ: العَهدُ المُحْكَم، والجمعُ: المواثيقُ، والمَوثِقُ: الميثاقُ، والمواثقةُ: المعاهدةُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7]، ووَثَّقْتُ الشَّيءَ: أحكمتُه[2]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾، أي: يُصدِّقُ بعضُهم بعضًا، ويتبعُ بعضُهم بعضًا[3]، أو بعبادةِ اللهِ وحدَه، وهم في ظهرِ آدمَ[4]، أو حيثُ أُخرِجوا من صُلْبِ آدمَ كالذَّرِّ[5]، والأوَّل أوْلى بالسّياق[6].

2) ﴿غَلِيظًا﴾: (غلظ) الغِلظُ: عظمُ الجرمِ، وجسامتُهُ مع صلابةٍ، وما يتبع ذلك من شدَّةٍ وقوَّةٍ وحدَّةٍ، كلُّ ذلك في المادّيّات، ويُستعارُ كذلك للمعاني، غَلُظَ الشَّيءُ بالضَّمِّ غِلَظًا: صارَ غليظًا، ورَجلٌ فيه غِلْظَةٌ بكسرِ الغَيْنِ وضمِّها وفَتْحِها، وغِلاظةٌ بالكسرِ، أي: فَظاظَةٌ، والغِلْظَةُ: ضدُّ الرِّقَّةِ، وأصْلُهُ أن يُستعمَلَ في الأجسامِ لكن قد يُستعارُ للمعاني كالكبيرِ والكثيرِ، قال تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التَّوبة: 123]، أي: خُشونَة[7]، ومِنَ الغِلظِ المعنويِّ قولُهُ تعالى: ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾، أي: عهدًا شديدًا عظيمًا على الوفاءِ بما حُمِّلوا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبرًا عن كلِّ الأنبياء أنَّه أخذَ عليهمُ العهدَ والميثاقَ في إقامةِ دينِ اللهِ تعالى، وإبلاغِ رسالتِه والتَّعاونِ والتَّناصُرِ والاتِّفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، ونصَّ من بينهم على هؤلاءِ الخمسةِ، وهم أولو العَزْم، وهو مِن بابِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 159، والبقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان: (وثق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 125.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 126، والنَّحّاس، معاني القرآن: 5/ 327، ومجاهد، تفسير مجاهد، ص: 514.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 216.
(6) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 347.
(7) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (غلظ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غلظ).
(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 6/ 355، والشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 347.

عطفِ الخاصِّ على العامِّ، وقد صرَّحَ بذكرِهم في هذه الآية، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّه سيسألُ الصّادقين المبلِّغين المؤدّينَ عَنِ الرُّسل أنَّ الرُّسُلَ قد بلَّغوا رسالاتِ ربِّهم، ونَصَحوا الأُمَمَ، وأفْصحوا لهم عنِ الحقِّ المبينِ الواضحِ الجَليِّ الَّذي لا لَبْس فيه ولا امْتراءَ، وإنْ كذَّبهم مَنْ كذَّبهم مِن الجَهَلةِ والمعاندين الكافرين الَّذين سينالونَ من ربِّهم يومَ القيامةِ عذابًا موجِعًا[1].

أخْـذُ العـهـدِ مِـنَ الأنـبـيـاءِ بالبلاغ والصَّبر والنُّصرة، وما يترتَّب عليه مِن ثواب وعقاب

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾ عطفٌ على قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1] إلى قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ [الأحزاب: 3]، وفي هذا العطفِ تضمينٌ للأمرِ بإقامةِ الدّين على ما أرادَه اللّهُ تعالى، وأوْحَى به إلى رسولِه ﷺ، وعلى نبذِ سُنَنِ الكافرينَ الصُّرحاءِ والمنافقينَ مِن أحكامِ الهوى والأوهام، فالواوُ مع آيتِها لها معنَى التَّذييل لآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، مع آياتِها الثَّلاث، ولكنَّها جاءتْ معطوفةً بالواو لبُعدِ ما بينَها وما بين الآياتِ الثَّلاثِ المتقدِّمة[2].

الأمـرُ بتبليغِ الرِّسالة ونبذِ طاعة الكافرين

ويجوزُ أن يكون معطوفًا على محلِّ ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الأحزاب: 6]، فيعمل فيه ﴿مَسْطُورًا ۝٦﴾ [الأحزاب: 6]، أي: كان هذا الحكمُ مَسْطورًا في الكتابِ ووقتِ أخْذِنا[3].

سرُّ التَّعبير بـ(إذ) في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾:

موضعُ (إذْ) النَّصبُ على أنَّه اسمٌ للزَّمانِ مجرَّدٌ عن معنى الظَّرفيَّة، بمعنى (حين) أو (وقت)، والمعنى: واذكُرْ وقتَ أخْذِنا ميثاقًا مِنَ النَّبيّين[4]، وهذا يجوزُ أن يكون تذكيرًا للنَّبيِّ ﷺ ذلك

استحضارُ الماضي في ذهنِ السّامعِ أيًّا كان هو

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 438.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 273.
(3) السَّمين، الدُّرّ المصون: 9/ 95.
(4) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 216، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 401.

الميثاق، ويجوزُ أن يكونَ المعنَى: واذْكُرْ لقومِكَ ذلك، أي: فيما أُمِرتَ في تبليغِه عنِ اللهِ شريعتَه، فلستَ بِدْعًا في تبليغِكَ عنِ اللهِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالأخذِ في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾:

التَّعبيرُ بالأخذِ دونَ غيرِه مِنَ الألفاظ، فيه معنى حوزِ الشَّيءِ وجمْعِه بقوَّة[2]، وفي هذا توثيقٌ له، ولذلك عدّي أَخْذُ الميثاق بـ﴿مِنَ﴾ وليس بـ(على).

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَخَذْنَا﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أَخْذَ الميثاق من النَّبيّين أمرٌ قد مضى، وانقضى، فلا شكَّ فيه ولا ارتياب، ويجب أن يترتَّبَ عليه آثاره مِنَ الوفاء به، والعمل بمقتضاه.

نكتةُ إسنادِ الأَخْذِ إلى ضميرِ العَظَمة:

جاءَ إسنادُ الأَخْذِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في قوله تعالى: ﴿أَخَذْنَا﴾؛ للدِّلالة على عظم آخذِ هذا الميثاقِ، أي: أخذْنا هذا الميثاقَ بما لنا مِنَ الكبرياء والعظمةِ، ليكونَ هذا أدعى إلى الوفاءِ بالميثاق وقبولِ الأوامرِ، وخاصَّةً في أعلى المواثيقِ وأشرفِها، وهو الميثاقُ الَّذي أخذَهُ اللهُ تعالى على النَّبيّين في إقامة الدّين وتبليغِ شرائعِ ربِّهم ورسالاتِه إلى أُمَمِهم[3].

إظهارُ عظمةِ الآخذِ أدعى للوفاء بعهدِهِ والعملِ بمقتضاهُ

بلاغةُ الالتفاتِ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّم:

انْتقلَ النَّظمُ الكريمُ في الضَّمائرِ المسوقةِ من الغَيبةِ إلى التَّكلُّم تعظيمًا للميثاق، وإشارةً إلى أهميَّة ما احتواهُ، وتأكيدًا لإظهارِ العظمةِ بقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ بعد قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾، ولما لأخذِ الميثاقِ من أهمّيَّةٍ قُصوى، وخاصَّةً أنَّ الَّذي أخذَ الميثاقَ منهم هو اللهُ بعظمتِه وكبريائه بقوله: ﴿أَخَذْنَا﴾[4].

تعظيمُ الميثاقِ وأهميَّةُ ما احتواهُ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 455.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخذ).
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 293.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالأخْذِ:

استيفاءُ العهدِ الأكيدِ بالأخذِ العتيدِ

الأخْذُ للميثاقِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ استعارةٌ عنِ الاستيفاءِ الكاملِ لمضمونِ الميثاقِ وتحقُّقِه، وهو تبليغُ الشَّرائع، والدُّعاءُ إلى الإيمانِ باللهِ الأحد، وتصديقُ الأنبياءِ بعضِهم بعضًا، وهذا الاستيفاءُ مجازٌ؛ إذِ الميثاقُ ليس شيئًا ماديًّا محسوسًا يُؤخَذ، والآخذُ لهذا العهدِ الأكيدِ الموثَّقِ هو اللهُ ﷻ - وله المثلُ الأعلى - والآخِذُ يقتضي الإعطاءَ مِنَ الطَّرفِ الآخر، وهمُ الأنبياءُ، وهو مجازٌ عن التزامِهم بهذا الميثاق[1].

سرُّ تعديةِ الفِعل بـ﴿مِنَ﴾:

عظمةُ الآخذِ ومكانةُ المأخوذِ منه، وشرفُ مضمونِ الميثاق

عُدّي الفعل (أخذ) بـ﴿مِنَ﴾ دون (على) أو غيرها مِنَ الحروف؛ لأنَّ المواثقةَ عقدٌ يقتضي الإيجابَ والقبول بين الطَّرفين، فالمواثقةُ مفاعلةٌ بين طرفين، أي: مشاركة، فاللهُ تعالى لم يأخذْ عليهم شيئًا، وإنَّما أخذَ مِنهم القَبولَ، كأنَّ اللهَ سبحانه آخذٌ منهم القبولَ والإيجابَ على العقدِ، حين اصطفائِهم واختيارهم رسلًا لتبليغ رسالتِه.

كما أنَّ في الأخذِ دلالةً على قدرةِ الآخذِ وقوَّته على ضبط الميثاقِ المأخوذ، وفي الأخذِ أيضًا دلالةٌ على شرفِ ما احتواهُ الميثاق.

بلاغةُ التَّعبير بـ﴿مِنَ﴾:

مبدأُ الميثاقِ مِنَ النَّبيّين

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ابتدائيَّةٌ بيانيَّة، أي: مبتدأُ هذا الميثاقِ مِن النَّبيّين، كأنَّ اللهَ ﷻ عرض عليهم اصطفاءَ النُّبوَّة، وما يتطلَّبه هذا الاصطفاءُ من واجباتٍ وتكاليفَ منهم، فقبلوا ذلك، وأوجبَها الله عليهم، وأخذَ مِنهم العهدَ والميثاقَ بذلك، فكان منهم القبولُ، ومِن الله الإيجابُ.

معنَى (أل) في ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

عمومُ النَّبيّينَ عاهدوا اللهَ تبليغَ رسالتِه

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للجِنْس، أي: جنسُ النَّبيّين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 274.

دون استثْناءِ أحدِهم، أو للاستغراق بما فيه من شمولِ أفرادِهم، أي: مِن كلِّ النَّبيّين، وقد تفيدُ الاستحقاقَ، أي: مَن استحقّوا النُّبوَّةَ باصطفاءِ اللّهِ لهم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحجّ: 75].

نكتةُ العدولِ عن (الأنبياء) إلى ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

مقامُ النَّبيّين متوافقٌ مع الميثاقِ الَّذي أخذَه اللهُ منهم

الأنبياءُ: جمعُ تكسير، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمعُ المذكَّر السّالم، وهو أشْرفُ وأكرمُ وأعْلى مقامًا من جمع التَّكسيرِ، والسّياقُ هنا والمقامُ معه، مقامُ أخذِ العهدِ الأكيدِ الموثَّق، وهو أشرفُ عهدٍ وأعظمُ ميثاقٍ، وهو تبليغُ رسالةِ التَّوحيدِ إلى العباد، والشَّرائعِ الَّتي ارتضاها ﷺ، وحمَّل النَّبيّين مهمَّةَ بيانِها لأممِهم بوحيِ اللّهِ ﷻ، ولذلك أُسنِدَ الأخذُ إلى اللّهِ تعالى بقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾.

من سننِ اللهِ في خَلقِهِ أنَّ الكرامَ قليلٌ

وجمْعُ الأنبياءِ جمْعُ كثرةٍ، وجمْعُ النَّبيّين جمعُ قلَّةٍ، والنَّبيّون وإن كانوا كثيرينَ في أنفسِهم، إلّا أنَّهم بالنِّسبة لعمومِ الخلقِ قلَّةٌ، فأشار بجمعِ النَّبيّين إلى قلَّةِ هؤلاء، وتلك سُنَّةٌ من سنَنِ اللّه في خَلْقِهِ أنَّ الكرامَ قليلٌ.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عنِ العهدِ بالميثاق:

الميثاقُ: اسمُ العَهدِ وتحقيقِ الوعد، وهو مُشتقٌّ من وثِقَ؛ إذا أيقنَ، وتحقَّق، فهو منقولٌ من اسمِ آلةٍ مجازًا غَلَبَ على المصدرِ[1]، فهو عهدٌ موثَّقٌ بين المُلزِمِ والمُلتزِم، وهو كائنٌ قائمٌ لا يتخلَّف.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

اختصاصُ النَّبيّين بالميثاق وحضرةُ فيهم

تقديمُ قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على المفعول ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ لمزيدِ الاهتمامِ بالنَّبيّين الَّذين همُ المعوَّلُ عليهم في التزامِ ميثاقِ ربِّهم وتبليغِ دينه لأُمَمِهم، وهو ما يتضمَّنُ بيانَ الإيمانِ باللّهِ وشرائعِه، وشدَّ أزْرِ بعضِهم لبعض، كما يفيد تقديمُ ما حقُّه التأخيرُ الحصرَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

والاختصاص، أي: أخَذْنا منهم دونَ غيرِهم، أو أخَذْنا منهم وحدَهم لا مِن غيرِهم، أو اختصَصْناهُم بهذا الميثاقِ دون سائرِ الخلق.

نكتةُ إضافةِ الميثاقِ إلى ضميرِ النَّبيّين:

اختِصاصُ الميثاقِ بالنَّبيّينَ باغتبارِ الإلْزامِ والالتزام

إضافةُ الميثاقِ إلى ضميرِ النَّبيّين من إضافةِ المصدرِ إلى معموله، على معنَى اختصاصِ الميثاقِ بهم، فيما أُلزموا به، وما وعدَهمُ اللّهُ على الوفاءِ به، ويُضافُ أيضًا إلى ضميرِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ [المائدة: 7][1]، بإضافة المصدرِ إلى فاعلِه.

نكتةُ عَطْفِ الأنبياءِ المذكورين على ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

تعظيمُ المقامِ بذِكْرِ أصحابِ الكتُبِ وأربابِ الشَّرائع

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الأنبياءَ المذكورين بأسمائِهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ على قوله من قبلُ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ، أي: ذِكرُ بعضِ أفرادِ العامِّ دون غيرِهم للاهْتِمامِ بهم، فهُم أصحابُ الكتبِ ومشاهيرُ أربابِ الشَّرائع؛ تأكيدًا للأمرِ وتعظيمًا للمقام[2].

نكتةُ تخصيصِ هؤلاءِ الأنبياءِ بالذِّكرِ دون غيرِهم:

الأنبياءُ الخمسةُ هم أولو العزمِ مِنَ الرُّسلِ وأعظمهم شرفًا وفضلًا

تخصيصُ الأنبياءِ بالذِّكر دون غيرِهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾؛ لأنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ هم أولو العَزْمِ مِن الرُّسُلِ لشرفِهم وفَضلِهم على غيرِهم، فالعلَّةُ هي التَّأسيةُ بالمتقدِّمين والمتأخِّرين، فقال: ﴿وَمِن نُّوحٖ﴾ أوَّلِ الرُّسُلِ إلى المخالفين، ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أبي الأنبياء، ﴿وَمُوسَىٰ﴾ أوَّلِ أصحابِ الكُتُبِ من أنبياءِ بني إسرائيل، ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ ختامِهم، نسبَهُ إلى أُمِّه مناداةً على مَنْ ضلَّ فيه بالتَّوبيخِ والتَّسجيلِ بالفضيحة[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.
(2) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 252، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 8/ 455.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

نكتةُ تقديمِ ذِكْرِه ﷺ على الأنبياءِ المذكورين:

رسولُ الله ﷺ أفضلُ المفضَّلين مِنَ الأنبياء

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ النَّبيِّ ﷺ على الأنبياءِ المذكورين مع تأخُّرِه في الزَّمان؛ لبيانِ أفضليَّتِه ﷺ على هؤلاءِ الأنبياءِ المذكورين المفضَّلين، فقُدِّم عليهم؛ للدَّلالةِ على أنَّه أفضلُهم، ولولا ذلك؛ لَقدَّمَ مَن قدَّمَهُ زمانُه[1]، ولأنَّه المقصودُ بالذّاتِ بالأمرِ بالتَّقوى، واتِّباعِ الوحيِ لأجلِ التَّبنّي وغيرِه[2].

معنَى (مِنْ) في قوله: ﴿وَمِنكَ﴾:

الابتداءُ به ﷺ وتخصيصُهُ لأفضليَّته

قال تعالى: ﴿وَمِنكَ﴾، أي: ابتداءً وبيانًا وتخصيصًا لك يا رسولَ اللّهِ، فقد أخذَ اللّهُ عليه العهدَ في التَّبليغِ في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ [الأحزاب: 2]، وقولِه تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: 67][3].

سرُّ الالتفاتِ مِن الغيبةِ إلى الخطاب:

شرفُ الخطابِ والمواجهة

كان ظاهرُ السّياق أن يُقال: (وإذ أخَذْنا مِنَ النَّبيِّين ميثاقَهم ومن رسول اللّه ومن نوح وإبراهيم)؛ لكنَّه عدلَ مِنَ الغيبةِ إلى الخطاب لفوائدَ، منها: إثباتُ شرفِ الخطاب والمواجهة، وهذا لا يحظى به إلّا القليلُ، وكذلك بيانُ استقلالِ النَّبيِّ ﷺ بابتداء الميثاقِ وحدَهُ، وجمْعُ الأنبياءِ الأربعةِ في ابتداءٍ واحدٍ، لعطف الأسماء الظاهرةِ دون الاحتياجِ إلى إعادةِ (من)، فلم يقل: (ومِن نوحٍ ومِن إبراهيمَ ومن موسى ومِن عيسى)، فكأنَّه ﷺ وحدَهُ في كفَّة، وبقيَّة أولي العزم مِنَ الرُّسل مجتمعين في كفَّة.

محمَّد ﷺ أشرفُ الأنبياءِ وأسبقُهم في الفضلِ

ومن فوائدِ العدولِ مِنَ الغيبةِ إلى الخطاب الدِّلالةُ على تعدُّد هذا الميثاق، فقد أُخذ في عالم الغيب (عالم الذر)، وهو ﷺ فيه أشرفُ

(1) الزَّمخشري، الكشَّاف: 3/ 252.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.

الأنبياء، وأسبقهم في الفضل والمنزلة، وقد أُخِذَ في عالم الشهادة، وهو فيه آخرُهم في الزَّمان، وأوَّلهُم في الفضل والمنزلة، ومِن هذه الفوائدِ أيضًا إظهارُ أنَّ الميثاقَ المأخوذَ منه ﷺ أشملُ المواثيق؛ لأنَّ سؤالَهُ أعظمُ مِن سؤال غيرِه من الأنبياءِ، بدليل أنَّه يُسأل عن الأنبياءِ، وأمَّته تُسأل عنِ الأُمم، وهذا إنَّما يكون تبعًا لشمولِ الميثاقِ له ﷺ واتِّساعه لجملةٍ من الأمور، بعضُها لا يكون موجودًا في ميثاقِ الأنبياء السّابقينَ، ولو كانوا مِن أولي العزمِ مِن الرُّسل، وبعضُ هذهِ الفوائدِ تُقال هنا، وتُقال في سرِّ تقديمهِ ﷺ في الذِّكر على بقيَّة أولي العزمِ مِنَ الرُّسل.

نكتةُ العطفِ في قوله: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾:

خصَّ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾ نبيَّ اللهِ نوحًا عليه السلام في عطفهِ على النَّبيِّ ﷺ بعد عطْفِهِ على الأنبياءِ لمزيدِ اخْتصاصِه في إفرادِه؛ لأنَّه كان عليه السلام أوَّلَ الرُّسُلِ إلى المخالفين[1].

معنَى (مِنْ) في قوله: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾:

اخْتصاصُ نوحٍ عليه السلام بمزيدِ الأهمّيَّةِ والأثَر

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِن نُّوحٍ﴾ تفيد معنَى الاخْتصاصِ بعد إفادتِهِ السَّبقَ في الزَّمان على من بعده، وفي ذلك دلالةٌ على الاهتمامِ بهذا التَّقديمِ في حقِّ نبيِّ اللهِ نوحٍ عليه السلام الَّذي كان لرسالتِهِ شأنٌ خطيرٌ في وقتِ حدوثِ الشِّرك، فكان أَخْذُ الميثاقِ منه عليه السلام مع هذا الشَّأنِ عظيمَ الأهمّيَّةِ والأثَرِ المُترتِّب عليه[2].

دلالةُ التَّرتيبِ في ذِكرِ هذه الكَوْكبةِ مِنَ الأنبياء:

في ترتيبِ إيرادِ الأنبياءِ بأسمائِهم عليهم السلام مراعاةٌ لترتيبِهم في الوجود، مع ما امتازوا بهِ مِن عظيمِ الفَضْلِ في كُتبِهم وشرائعِهم الَّتي أُسندَ إليهم تبليغُها لأممِهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 274.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 15/ 295.

نكتةُ إضافةِ عيسى عليه السلام إلى أُمِّهِ:

عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام عبدُ اللهِ ورسولُه

أضافَ النَّظمُ الكريمُ عيسى عليه السلام إلى أُمِّه في قوله تعالى: ﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ مناداةً على مَنۡ ضلَّ فيه بالتَّوبيخِ والتَّسجيلِ بالفضيحة[1] على مَن اتَّخذوه وأمَّه إلهَيۡن من دون الله، فيما حكاه القرآنُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة: 116]، والقولُ الحقُّ جاء في قوله تعالى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ﴾ [المائدة: 117]، وعلى مَن اتَّخذوه إلهًا: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: 72]، وعلى مَن جعلوهُ ثالثَ ثلاثةٍ: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: 73].

نكتةُ ذِكْرِ الأنبياءِ بذِكْرِ أسمائهم دون النَّبيِّ ﷺ:

لبعضِ الأنبياءِ ميّزاتٌ ذُكِرَتْ بها أسماؤهم دونَ غيرِهم

ذَكَرَ النَّظمُ الكريمُ أسماءَ أنبياء دون النَّبيِّ ﷺ، وذلك لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم له صفةٌ تميَّزَ بها عن غيرِه مِنَ الأنبياء، فقولُه تعالى: ﴿وَمِن نُّوحٖ﴾؛ لأنَّه أوَّلُ الرُّسلِ إلى المخالفين المشركين، و﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ هو أبو الأنبياء، و﴿وَمُوسَىٰ﴾ أوَّلُ أصحابِ الكتُبِ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، و﴿وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ ختامُهم نسبَهُ إلى أمِّه توبيخًا وتسجيلًا بالفضيحةِ على مَنِ اتَّخذوه إلهًا من دونِ الله[2].

سرُّ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم﴾:

تأكيدُ مضمونِ أخذِ الميثاقِ وتفخيمُ شأنِه

جاء العطفُ بالواوِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ على مضمونِ جملة ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ لزيادةِ تأكيدِها، وليُبنَى عليها وصفُ الميثاقِ الغليظ[3]، فالميثاقُ الثّاني هو الميثاقُ الأوَّلُ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

بعَيْنِه، وأخْذُهُ هو أخْذُهُ، والعطفُ مبنيٌّ على تنزيلِ التَّغايُرِ العنوانيِّ منزلةَ التَّغايرِ الذّاتيِّ تفخيمًا لشأنِه[1].

الغَرَضُ من إعادةِ ذِكْرِ الأخْذ:

تأكيدُ أخذِ الميثاق أو اختلافه

إعادةُ ذِكْرِ الأخْذِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ تأكيدٌ للأخْذ، أيْ: أخْذِ الميثاقِ، والَّذي أخذَ الميثاقَ هو اللهُ ﷻ، أخذَه من صَفْوةِ خَلْقِه وأنبيائه ورُسُلِه، فهو آخذٌ في كلِّ أحوالِه من مبدئِهِ إلى منتهاهُ إلى مضمونِه، وهو ميثاقٌ قائمٌ على تبليغِ توحيدِ اللهِ وشرائعِهِ ورسائلِه إلى خَلْقِه[2]، والظّاهر أنَّ الميثاقَ الثاني المأخوذَ على أولي العزمِ مِنَ الرُّسلِ غيرِ الميثاقِ الأوَّلِ المأخوذِ على عموم الأنبياءِ، ويُرجِّح ذلك وصفُ الميثاقِ الثاني بكونِه ﴿غَلِيظًا﴾، وعدم نسبةِ الميثاقِ إليهم، كما في الأوَّل ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾.

دلالَةُ إعادةِ إسنادِ الأخذِ إلى ضميرِ العَظَمة:

بعظمةِ اللهِ ﷻ أخذَ اللهُ الميثاقَ مِنَ النَّبيّين عليهم السلام

إسنادُ الأخذِ إلى ضميرِ العَظَمةِ مرَّةً ثانيةً في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ تأكيدٌ لإظهارِ عظمةِ اللهِ، وأهمِّيَّةِ هذا الأخذِ ومضمونِه، وهو الميثاقُ الَّذي أخذَه اللهُ، أي: بعظمتِنا في ذلك أخَذْنا الميثاقَ مِن أنبيائِنا ورُسُلِنا لتبليغِهِ للأُمم على مرِّ الدُّهورِ وكرِّ العصور[3]، وفي إسنادِ الفعل إلى ضميرِ العظمةِ قبلَ ذِكر الأنبياء وبعدَهُ إشارةٌ إلى دوامِ عظمةِ اللهِ وامتدادها قبلَ الأنبياءِ وبعدهم.

سِرُّ التَّعبير بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِنْهُم﴾:

(مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِنْهُم﴾ تفيدُ الاهتمامَ والتَّخصيص من جهتَين: اهْتمامِ التَّقديم، واهْتمامِ إظهارِ اقْترانِ الابْتداءِ بضميرٍ بخصوصِه غيرِ مُندمجٍ في بقيَّتِهم عليهم السلام[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 294.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿مِنْهُم﴾:

مزيدُ الاهتمامِ بالأنبياءِ ومهمَّتِهم في تبليغِ الميثاق

الأصلُ في تقديم ما حقُّه التَّأخيرُ الحصْرُ والاختصاص، والمعنى: (وقد أخَذْنا الميثاقَ الغليظَ منهم لا مِن غيرِهم، واختصَصْنا أولي العزم مِنَ الرُّسل بذلك لعلوِّ منزلتهم على سائر الأنبياء)، وتقدَّمتْ شِبهُ الجملة ﴿مِنْهُم﴾ كذلك على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا﴾، والأصلُ أنْ يُقال: (وأخَذْنا ميثاقًا منهم) لمزيدِ الاهتمامِ بالأنبياء، وبيانِ تفخيمِ شأنِهم عندَ اللهِ تعالى، ومهمَّتِهم العظيمةِ في تبليغِ أممِهم ميثاقَ ربِّهم في الدَّعوةِ إلى الحقِّ الَّذي ارتضاهُ اللهُ لهم، وأمرَهم به[1].

نكتةُ تنكيرِ ﴿مِّيثَٰقًا﴾:

زيادةُ الاهتمامِ والتَّعظيمِ والتَّفخيم

في قولِه تعالى: ﴿مِّيثَٰقًا﴾ بالتَّنكير دلالةٌ على تفخيمِ شأنِ الميثاقِ الَّذي أخذَه اللهُ من أنبيائه، وأنَّ هذا الميثاقَ قائمٌ على عمومِ ما احْتَوَتْهُ دعوةُ الرُّسُلِ ورسالتُهم إلى أُممِهم مِن وجوبِ عبادةِ اللهِ وحدَهُ دونَ سواه، والتزامِ شرائعِه وما ضمَّتْهُ مِن أحكامٍ وأخلاق[2].

علَّةُ إعادةِ ذِكرِ الميثاق:

شدَّةُ الاهتمامِ به أو تباين ما بين الميثاقين

أُعيدَ ذِكْرُ الميثاقِ في الآية: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا﴾؛ لزيادةِ تأكيدِ أهميَّةِ هذا الميثاق، وليُبنَى على هذا التَّأكيدِ وصفُ الميثاقِ بالغليظِ، فالميثاقُ الثّاني هو عَيْنُ الأوَّل[3]، وقد يكونُ في إعادة ذكرِ الميثاقِ تنويهٌ على أنَّ الأوَّلَ ميثاقٌ أخذَه اللهُ تعالى من النَّبيّين بتبليغِ الرِّسالةِ، والثّاني هو اليمينُ باللهِ تعالى، أكَّدَ الأوَّلَ بهذا اليمينِ على الوفاءِ بما حُمِّلوا، فالميثاقانِ متغايرانِ بالذّات، وإن كانَ الثّاني تأكيدًا للأوَّل[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 152.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 402، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 152.

أو يكونُ الميثاقُ الثّاني مختلفًا، فالأوَّل مأخوذٌ من عموم الأنبياء، ولم يوصف بكونهِ غليظًا، والميثاقُ الثاني مأخوذٌ من خواصِّهم وهم أولو العزمِ مِنَ الرُّسل، فناسب اختصاصُ الميثاقِ بالغليظِ اختصاصَ أولي العزمِ مِن سائرِ الرُّسل، فالميثاقان مختلفان.

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الميثاقِ بالغِلَظِ:

جاء وصفُ الميثاقِ بالغِلَظِ في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ اسْتعارةً لمعنَى الغليظِ للعظيم الرَّفيعِ في جِنْسِه؛ لأنَّ الغليظَ من كلِّ صِنْفٍ هو أمْكَنُه في صفاتِ جِنْسِه، حيث إنَّ الغليظَ هو: القويُّ المتينُ الخَلْقِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ [الفتح: 29][1].

ميثاقُ اللهِ المأخوذُ مِنَ الأنبياء عظيمٌ رفيعٌ في جنسه لا ينبغي لأحدٍ نقضه

ويمكنُ أن تكونَ الاستعارةُ هنا من وصفِ الأجرامِ العظام؛ كنايةً على أنَّه ميثاقٌ لا يمكنُ قطعُه لمن أرادَ الوصلةَ بنا، أي: بعظَمتِنا، أي: أخَذْنا منهم بعظمتِنا في ذلك ميثاقًا غليظًا لا يمكنُ قطْعُه لقوَّتِه وعظمتِه[2].

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ بين آيتي النِّساء والأحزاب:

في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وصفٌ للميثاقِ بالغِلَظ، وذلك أنَّ المُرْسَلَ بالميثاقِ إذا أعلَمهُ بأنَّه يسألُ عن حالِه في أفعالِه وأقوالِه وفي قيامِه على أمرِ ميثاقِه والتزامِ مضمونِه وتبليغِه؛ يكونُ ذلك تغليظًا للميثاقِ عليه حتَّى لا يزيدَ، ولا ينقُصَ في الرِّسالة.

قيامُ الأنبياءِ على أمورِ أممهم، والرِّجالِ على أمورِ النِّساء، فكلاهما مسؤوليَّةٌ وأداءُ حقوق

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النِّساء: 21]، كذلك إخبارٌ وإعلامٌ بأنَّ ميثاقَ الزَّوجيَّةِ موصوفٌ بالغِلَظ؛ لأنَّ الزَّوجَ مسؤولٌ عن زوجه، فهو راعٍ لها، أخذَها بحقِّ اللهِ، وإذا أراد أن يُفارقَها، فيفارقها بأداء حقِّ اللهِ، فهو مسؤولٌ عنها وعن أداءِ حقِّ ذلك الميثاقِ الغليظِ القائمِ بينهما بعُرَى الزَّوجيَّة.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.
(2) البقاعي، نَظْمُ الدُّرر: 15/ 294 - 295.

وكما أنَّ اللّهَ تعالى جعلَ الرِّجالَ قوّامينَ على النِّساء، جعلَ الأنبياءَ قائمين بأمورِ أمَّتِهم وإرشادِهم إلى سبيلِ الرَّشاد[1].

سرُّ التَّعبيرِ باللّام في: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾:

ذِكـرُ علَّةِ أخْـذِ الميثاق

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لامُ (كي)، أي: أخَذْنا منهم ميثاقًا غليظًا؛ لِنُعَظِمَ جزاءً للَّذين يوفونَ بعهدِ اللّه، ولا ينقُضونَ الميثاق، ولِنُشدِّدَ العذابَ جزاءً للَّذين يكفرون بما جاءَتْهم رُسُلُ اللّه[2].

سرُّ حذفِ فاعل ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾:

وضـوحُ المعنى؛ لأنَّـه لا يملكُ، ولا يـسـألُ فـي ذلـك الـيـوم إلّا الله

لمّا كان أخْذُ العهدِ على الأنبياء – وهم صفوةُ اللّه من خلقِهِ – في عالم الذَّرِّ أو في كتبِهم وشرائعِهم لا يكونُ إلّا ممَّن هو أعلى منهم وأرفعُ، وهو اللّهُ الملك؛ عُرِفَ بداهةً أنَّه لا يجازي على الوفاء بهذا العهدِ والميثاق في يومٍ تعنوا فيه جباهُ الملوكِ للّه إلّا اللّهُ الملك سبحانه.

بلاغةُ العدولِ إلى الغَيْبة في ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾:

تعظيمُ الهيبةِ فـي الـنُّـفـوسِ عند معرفةِ علَّة الميثاق وغايته

ضميرُ ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ عائدٌ إلى اللّهِ تعالى، وهو التفاتٌ عمّا سبقَ مِنَ التَّكلُّم إلى الغَيْبة، لتعظيم الهَيْبة؛ لأنَّ الخطابَ إذا طالَ؛ اسْتأنسَ المخاطَبُ[3]، ولبيانِ علَّةِ أخذِ الميثاقِ وغايتِه بيانًا قصديًّا لتحقيقِ ما وراءه مِن معرفةِ الصّادقين والكافرين[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالسُّؤالِ في: ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾:

السُّؤال: كنايةٌ عنِ المؤاخذة؛ لأنَّها من ثوابِ جوابِ السُّؤال، يعني: إسداءَ الثَّوابِ للصّادقين الَّذين صَدَقوا في تبليغِ الميثاق، بعد إعلان صِدْقِهم بالسُّؤال والجواب، وصِدقِ النِّيَّة فيه بالإخلاص وعلى رأسهمُ الأنبياء[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 159.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 275.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 152.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 276.

دلالة التَّعريف بـ(أل) في ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ موصولةٌ، والموصولُ بكافَّة أنواعِهِ يفيد العمومَ، أي: ليسأل كلَّ الذين صدقوا، أي: الَّذين عُهِدَ منهم الصِّدْقُ في الوفاءِ بالعهد، وعلى رأسِهمُ الأنبياءَ، ولذلك أسندَ إليهم صفةَ الصِّدقِ بعد ذلك؛ تأكيدًا لهذا المعنى، فقال: ﴿عَن صِدْقِهِمْۚ﴾[1].

إظهارُ مكانةِ الصّادقين بسؤالِهم جميعًا في هذا المشهدِ العظيم

نكتةُ تعديةِ سؤالِ الصّادقين بـ﴿عَن﴾:

السُّؤالُ في قولِه تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وتعديتُه بـ﴿عَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَن صِدْقِهِمْۚ﴾؛ للإيذانِ من أوَّلِ الأمرِ بأنَّهم صدقوا فيما سُئِلوا عنه، والمرادُ بهم النَّبيّون الَّذين أُخِذَ ميثاقُهم، ومَنْ صدقَهم مِن أقوامِهم، فيقالُ لهم: هل صدقتُم في ميثاقِكم؟ وهل كان تصديقُكم لوجهِ اللّهِ تعالى[2]؟ وفي ذلك تشريفٌ لهم.

الإيذانُ بصدقِ الأنبياءِ ومَنْ صدَّقهم عمّا أخذ في الميثاق

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿صِدْقِهِمْۚ﴾:

التَّعبيرُ بالمصدر في ﴿صِدْقِهِمْۚ﴾ يفيد المبالغةَ في الفعل، فإذا أُضيفَ المصدرُ إلى ضميرِهم، وكانت الإضافةُ بمعنى (من)؛ دلَّ ذلك على المبالغةِ في وصْفِهم بالصِّدق، كأنَّ الصِّدقَ كلَّهُ خارجٌ منهم وناشئٌ عنهم، وفي ذلك إشارةٌ أيضًا على عدلِ اللّهِ ﷻ في السُّؤال والجزاء يوم القيامة.

جزاءُ الصّادقين بإسداءِ الثَّوابِ إليهم

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَأَعَدَّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وفيها دلالةٌ على تحقيقِ عذابِ الكافرين حتَّى لا يُتوهَّمَ أنَّهم يُسألون سؤالَ مَن يُسمَعُ جوابُهم أو معذرتُهم، ولإفادةِ أنَّ إعدادَ عذابِهم أمرٌ مضى، وتقرَّرَ في علمِ اللّه[3].

تحقيقُ عذابِ الكافرين المقدَّرِ المعدِّ لهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 152.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 21/ 276.

ويجوزُ أن يكونَ عطفًا معنويًّا على ﴿أَخَذْنَا﴾، ويكون المعنى: أكَّدَ على الأنبياءِ الدَّعوةَ إلى دينِه؛ ليُثيبَ المؤمنين، وأعدَّ للكافرين[1].

معنَى اللّام في قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

اختصاصُ الكافرين بالعذابِ الأليمِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ لامُ التعديةِ الَّتي تفيد اختصاصَ المجرورِ بها للفعل، كأنَّه قال: نخصُّ الكافرين بالعذابِ الأليم، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: 31]، أيْ: خصَّتهنَّ بالمُتَّكأ، فهو معدٌّ لهنَّ دونَ غيرِهنَّ، فيكون المعنى هنا: خصَّصنا الكافرينَ بالعذابِ الأليم.

دلالةُ (أل) في ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

شمولُ العقوبةِ كلَّ أنواعِ الكافرين وأفرادهم

(أل) في قوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ موصولةٌ، والموصولُ بكلِّ ألفاظِه مِن صيغِ العُموم، والعمومُ والشُّمول هنا لاستغراق أنواعِ الكافرين مُجاهرين أو مُستترين، ولشمول أصنافِ كلٍّ منهما، وشمول أوصافِهم، فهي في الجملة تفيدُ هنا شمولَ الأجناس والأنواعِ والأفراد والصِّفات، وفي ذلك إشارةٌ إلى ما هم عليهِ مِنَ الكفر المؤذنِ لاستحقاقِهم العقوبةَ.

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

إهانةُ الكافرين وازْدراؤُهم

تقديمُ شِبْهِ الجملة ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ على قوله تعالى: ﴿عَذَابًا﴾ - والأصلُ أن يتأخَّرَ - للإشارة إلى العلَّةِ في إعدادِ العذابِ الأليم لهم، فكأنَّه إنَّما أعُدَّ العذابَ الأليم لأجل كفرِهم، وفيه أيضًا حصرٌ واختصاصٌ؛ لأنَّه تقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، والمعنى: أعُدَّ العذابَ الأليم لهم دون غيرِهم، وهو مختصٌّ بهِم لا يتجاوزُهم، ولمزيدِ الإهانةِ والتَّبكيتِ لهم على كفرِهم وعنادِهم للحقِّ مع وضوحِ دلالاتِه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابًا﴾:

جاءَ تنكيرُ ﴿عَذَابًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدَ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/ 153، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 347.

أَلِيمًا﴾؛ للدَّلالةِ على عِظَم هذا العذابِ وشدَّته وقوَّته وفظاعته وهوله وإهانته وتنوُّعه، وهذا هو السِّرُّ في وصفِ لفظِ (عذاب) النَّكرة في القرآنِ بالأليم والعظيم والمهين والشَّديد وغير ذلك مِنَ الأوصافِ الكثيرةِ الَّتي أكثر منها القرآنُ الكريمُ، وأمّا تنوُّعُهُ؛ فقد أتى القرآنُ الكريمُ على ذِكر بعضِ أنواعِ عذابِ الكافرين في طعامِهم وشرابهم وفي حرقِ أجسادِهم وجلودهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدُّخان: 43 - 44]، وقوله تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمَّد: 15]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النِّساء: 56].

عِـظَـمُ عـذابِ الكافرينَ وقوَّتُه وشدَّتُه وتنوُّعُه وتجدُّدُه

نكتةُ وصفِ العذابِ بالأليمِ:

العذابُ لا يكون إلّا أليمًا، فلا يُتصوَّر عذابٌ بلا ألَم، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ في قولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أراد أن يؤكِّدَ وقوعَ هذا الألمِ في عذابِ الكافرين مع كونِهِ واقعًا - لا محالةَ - لزيادةِ التَّنفيرِ مِن اتِّباع السُّبُلِ الَّتي تودي بصاحبِها إلى الكفرِ وعذابه الأليم يومَ الدّين.

زيادةُ التَّنفيرِ مِنَ الكفرِ وطرائقِهِ

بلاغةُ الاحْتباكِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ احتباكٌ، وهو ما يُعرَفُ بالحذفِ المتقابلِ، بل يُعدُّ من محاسنِ رياض الاحتباك؛ لأنَّه يدلُّ بالمذكور على المحذوف، فيفيد المعاني الكثيرةَ بالألفاظِ القليلةِ، والتَّقديرُ: ليسألَ المؤمنين الصّادقينَ عن صِدْقِهم، وأعدَّ لهم ثوابًا عظيمًا، ويسألَ الكافرين الكاذبينَ عن كفرِهم وكذبِهم، وأعدَّ لهم عذابًا أليمًا، فحذفَ مِن كلٍّ منهما ما ثبتَ في الآخر[1]، أو ما دلَّ عليه الآخرُ.

الـدِّلالـةُ على مـعـانٍ كـثـيرةٍ بألفاظٍ قليلةٍ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 153.

بلاغةُ التَّصريحِ بالصّادقين والكافرين:

الصِّدقُ مِن لوازم الإيمانِ، والكذبُ مِن لوازم الكفر

أصلُ الكلام: (ليسأَلَ المؤمنين الصّادقين المخلصينَ في صدقِهم)، فذكرَ الصّادقين، ولم يذكرِ المؤمنين؛ لأنَّ الصِّدقَ والإخلاص لازمٌ من لوازمِ الإيمانِ، فذِكْرُ الصِّدق دالٌّ على الإيمان بداهةً، وذِكرُ الكافرين دالٌّ على الكاذبين؛ لأنَّ الكفرَ والكذب متلازمان: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ [النَّحل: 105].

نكتةُ التَّصريحِ بسؤالِ الصّادقين:

المبالغةُ في تكريم الصّادقين وإهانةُ الكافرين

صرَّحَ النَّظمُ الكريمُ بسؤالِ الصّادقين في قولِه تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾؛ بشارةً لهم بتشريفِهم في ذلك الموقفِ العظيم، وطوَى سؤالَ الكافرين؛ إشارةً إلى اسْتهانتِهم بفضيحةِ الكذب[1]؛ إذِ السُّؤالُ يكون لكلٍّ منهما، لكنَّ سؤالَ المؤمنين الصّادقين سؤالُ إعلاءٍ ورفعة بين أهل الموقفِ، وإشارةٌ إلى ما يتبعه مِنَ الثّواب العظيمِ والنَّعيم المقيم، وأمّا سؤالُ الكافرين؛ فليس لأجل إجابتِهم؛ بل لإقامة الحُجَّة عليهم، وللإشارة إلى ما يتبعُ ذلك من العذابِ الأليمِ الَّذي صرَّحت به الآية.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 15/ 295.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والأربعون،
سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2025.
مج. 44 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-97-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 44 : المجلد الرابع والأربعون، سورة لقمان من الآية 21 إلى سورة الأحزاب الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-97-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4197137 بتاريخ 2025/01/02م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»